

السحر وعلاقته بالدين

- عند الشعوب البدائية

بقلم

الدكتور السيد محمد بدوي

مدرس علم الاجتماع

مقدمة :

كانت مسألة العلاقة بين السحر والدين من أهم المسائل التي شغلت أذهان الباحثين الاجتماعيين منذ أن خطت الأبحاث الاجتماعية خطواتها الأولى في دراسة الشعوب البدائية . فأثار العلامة فريزر Frazer هذه المسألة في مؤلفاته الضخمة التي تعد من أهم المراجع وأدسمها مادة في دراسة الشعوب البدائية (١) وحاول أن يحدد بالدقة ماهية هذه العلاقة ومدى تأثير السحر في مظاهر الحياة الاجتماعية . ثم جاء بعده كودرنجتون Codrington (٢) ودرس فكرة ال (مانا) Le Mana أو القوة السحرية عند الشعوب البدائية . ومنذ ذلك الحين ظلت هذه المسألة مثار النقاش والجدل لا بين علماء الاجتماع فحسب بل وأيضا بين المؤرخين ورجال القانون والفلاسفة وعلماء اللاهوت فاحتمت كل طائفة من هؤلاء ببحث ناحية خاصة من المسألة . ووجه علماء المدرسة الفرنسية من أنصار دور كيم اهتماما خاصا لدراسة مسألة السحر بوجه عام وإلى تحديد مدى تأثير العقيدة السحرية على الناحية التشريعية بوجه

(١) أهم مؤلفات فريزر هي The Golden Bough ٣ème édit. en 7 Vol. 1911-15.

The Magic Origins of Royalty 1905.

La Tâche de Psyché; trad. Française 1909.

(٢) وصف كودرنجتون عقيدة المانا في كتابه Codrington: The Melanesians 1891.

خاص . ومن علماء هذه المدرسة الذين اشتغلوا بهذه المسألة موس (١) Mauss و
هوفلان (٢) Huvelin كما ساهم في بحثها أيضا العلامة ليفي برونل (٣) Levy-Bruhl
وتعرض لها من نواحي مختلفة في كتبه عن العقلية البدائية (٤) .

ولكن على الرغم من كثرة هذه الابحاث والتفسيرات المختلفة التي استعان
فيها أصحابها بالتعليل المنطقي الى جانب ما جمعه من الوثائق والعلومات عن حياة
الشعوب البدائية فان المسألة ابرزت نفسها وهي تحديد العلاقة الحقيقية بين السحر والدين
ومعرفة الوظيفة التي يؤديها السحر في حياة المجتمعات البدائية من حيث علاقته بنشأة
الفن والعلم والأخلاق والتشريع كل هذه المسائل ظلت موضع خلاف بين الباحثين
ولم يصلوا فيها بعد الى رأي نهائي .

فمنهم من يقول بأن السحر نشأ عن الدين بعد أن أفسد بعض عناصره الأخلاقية
وحولها الى ناحية الشر ومن أنصار هذا المذهب آلييه (٥) Allier . أو أنه نتيجة
لبزوغ فكرة الفردية بعد أن كن الطابع الجمعي يسيطر على المجتمعات البدائية وأيد
هذه الفكرة دور كيم (٥) و هوفلان . ومنهم من يعتقد على العكس بأن الدين هو
الذي خرج عن السحر ومن هؤلاء العلامة فريزر . كما أن هناك طائفة ثالثة وعلى
رأسها ليفي برونل تعتقد أن محو صلة السحر عن الدين أو القول بسبق أحدهما
على الآخر إن هي الا محاولة غشيمة فالسحر والدين مظهران لفكرة واحدة أو ظاهرة

(١) راجع مقال موس وهوبرت في المجلة الفرنسية لعلم الاجتماع

Mauss: *Esquisse d'une théorie générale de la magie* (en collaboration avec Hubert). Année-Sociologique 1902-1903.

Huvelin: *La Magie et le Droit individuel* (Année Soc. 1906). (٢)

Lévy-Bruhl: *La mythologie Primitive*, Paris 1936. (٣)

L'Expérience mystique et les Symboles chez les Primitifs, Paris Alcan 1938.

Allier: *Magie et Religion* 1930 pp. 22 et suiv. (٤)

Durkheim: *Les formes élémentaires de la vie Religieuse* 1912. (٥)

خاصة تميزت بها عقلية الشعوب البدائية وسماها ليفي برون « ظاهرة ما قبل الدين
«Pré-religion» (١)

وسنحاول في هذا البحث أن ندرس أهم النظريات في هذا الموضوع دراسة
نقدية لنخلص منها الى اثبات حقيقة أخرى : وهي أن السحر والدين ظاهرتان لاصاة
لأحدهما بالأخرى من حيث الأصل وأن كلا منهما تقوم علي أسس نفسية تختلف
عن الأخرى .

وقبل أن نخوض في بحث الموضوع نحب أن ننبه الأذهان الى أن كلمة
«سحر» في العربية يقابلها في اللغات الأوروبية لفظا Sorcellerie كما
أن كلمة «ساحر» يقابلها لفظا Sorcier ` magicien . وتعتبر لفظة Sorcellerie
بوجه خاص عما يسمونه أحيانا السحر الأسود La magie noire . الذي يكون
مقصده الوحيد احداث الضرر ببعض الافراد . أما السحر بوجه عام فهو وظيفة
اجتماعية تلتخص في القيام بشعائر خاصة لجلب الخير للمجتمع أو درء الخطر عنه
كالشعائر التي تنام لجلب المطر حين يعم الجذب أو لدفع خطر عدو مغير أو لشفاء
مرضى الخ

نظرية جيمس فريزر :

تسمى هذه النظرية بالنظرية العقلية Théorie intellectualiste وذلك لأن
فريزر أراد أن يفسر ظاهرة السحر عند البدائيين بالرجوع الى أسس عقلية لادخل
للعاطفة فيها . فنسب الى البدائيين أنهم توصلوا الى ادراك انتظام الظواهر الطبيعية
وتتابعها في تسلسل لاشذوذ فيه . ثم قال بأنهم فسروا هذا الانتظام بنوع من التأثير
العاطفي بين الأشياء Sympathie (٢) ثم قام السحر بعد ذلك على تطبيق قوانين

(١) وقد سما ليفي برون هذا النحو فيما يتعلق بالتفكير أو التعليل المنطقي توصف العقلية
البدائية بأنها "prélogique" راجع كتابه La Mentalité Primitive
(٢) Ramenau d'Or (Trad. Franç. de Golden Bough) p. 5 et suiv.

هذا التأثير العاطفي : وهي قانون المشابهة *Loi de similarité* وقانون الاتصال *Loi de Contiguïté*. « فالشيء يؤثر في الشيء ، والأشياء التي كانت بينها صلة ثم انقطعت يظل يؤثر بعضها في البعض كما لو كان الاتصال بينها ما زال قائماً . كما أن التأثير ينتقل من قريب الى قريبه ومن الصورة الى ما ترمز اليه ومن الجزء الى الكل » (١)

فالسحر في نظر فريزر تطبيق وهمي لترايط المعاني عن طريق المشابهة والاتصال. هو علم *science* سابق لأوانه ولكنه علم يقوم على البهتان أو اذا شئت فانه فن عقيم أو نوع من الخرافة يستغلها المكروة وذووا الدهاء من أهل القبيلة للتسلط على عقول الافراد واخضاعهم لسلطانهم .

ولكن هذه الخرافة كانت في نظر فريزر ذات نتائج بعيدة المدى فعنها خرج العلم والفن كما أنها أصل العقيدة الدينية . أما كيف نشأ العلم عن السحر فان فريزر يوضح ذلك بقوله ان السحر في مظهره الخالص يقوم على الاعتراف بأن الاحداث الطبيعية تتتابع بالضرورة دون الحاجة الى تدخل عامل روحى أو مآدى . وهذا المبدأ هو بعينه المبدأ الذى يقوم عليه العلم الحديث : مبدأ النظام ووحدة القوانين الطبيعية . فالساحر مقتنع تمام الاقتناع بأن العلة الواحدة لا يمكن أن تصدر عنها الا نتيجة واحدة وهو لا يمارس فنه الا إذا سار وفق قوانين الطبيعة على قدر فهمه لها . ولا يتوسل الى كائن آخر أقوى منه أو أكثر سلطاناً كما يفعل الكاهن أمام معبوده ولا ينجي هامته أمام جبروت الآلهة . هذا التشابه بين المبدأ الذى يقوم عليه السحر والمبدأ الذى يقوم عليه العلم هو الذى حدا بفريزر الى القول بأن العلم وليد السحر فكلاهما ينظر الى ما يحدث في الطبيعة لا على أنه وليد الصدف أو الأهمواء الشخصية بل على أنه ناتج عن قوانين ثابتة تتتابع في نظام آلى. (٢)

Origines Magique de la Royauté (Trad. franç.). pp. 35-38.

Rameau d'Or I. p. 64-85.

(١)

(٢)

ولما كانت حياة القبيلة البدائية لا تستطيع أن تقوم بغير أداء بعض الشعائر السحرية من حين لآخر ، فقد أصبحت طبقة السحرة في مركز ممتاز ، واقتصرت هذه المهنة بطبيعة الحال على أكثر أفراد القبيلة ذكاه وأشدهم دهاء . وكان تحررهم من القيام بأعباء الحياة المادية مما ساعد كثيرا على تفرغهم لبعض الأبحاث العلمية . هؤلاء السحرة أمثال صانع المطر والطبيب الشعوذ والساحر الزراعي والساحر التنجي . هؤلاء جميعا هم أسلاف أطبائنا وجراحينا بل ومختبرينا في الوقت الحاضر (١) فالسحر ولو أنه وليد الجهل والوهم إلا أنه أبو الحقيقة والحرية فقد ساعد كثيرا على تحرير الانسان من عبودية التقاليد .

أما عن علاقة السحر بالدين — وهو موضوع بحثنا — فإن فريزر ينسوه في بادئ الأمر بما بين الظاهرتين من تافر في المظهر الخارجي . فأهم ما يميز الدين على حد قوله « الضراعة والتوسل من جانب الانسان نحو قوة عليا يعتقد أنها تسيطر على شئون الطبيعة وعلى حياته . وهذه القوة وحدها قد تكون كافية لتظاهر لنا تعارض الدين مع السحر والعلم على السواء (٢) فوقف الساحر هو موقف الأمر المتحكم . أما رجل الدين فإنه يضرع ويتوسل وذلك لأن الأول يشعر أنه يواجه قوى قد تكون مماثلة له في طبيعتها أو أقل منه على حين أن الثاني مقتنع تماما بأنه يتوجه نحو قوة عليا خارجة عنه transcendante وتتحكم في مصيره . هذا التعارض بين موقفى الدين والسحر يفسر لنا العداء المستحكم الذى كان ينشب في مختلف العصور بين السحرة والكهنة . فان غطرسة السحرة واستخفافهم بالقوى التي تسيطر على الطبيعة جلبت عليهم سخط رجال الدين الذين كانوا يقارنون هذا التحدى بخضوعهم وضعفهم أمام الشعور بعظمة الآلهة . وما زاد هذا الشعور بالسخط ما كانوا

يشاهدونه من ثراء السحرة وتمتعهم بالجاه والسلطان دون عناء علي حين أنهم كانوا يقضون العمر في التمشف وتعذيب النفس ويقطعون مرحلة طويلة شاقة في سبيل الوصول الى رضا الله والدخول في رحمته .

ولكن فريزر يعود فيؤكد لنا أنه بالرغم من هذا الخلاف الظاهري بين السحر والدين فإن السحر هو الظاهرة الاجتماعية التي سبقت الدين من حيث الظهور وهو الأساس الذي نشأت عنه العقيدة الدينية . فقد نشأ الدين من أخطاء السحر وفشله في كثير من محاولاته . إذ ظل الانسان مدة طويلة يعتقد أنه يستطيع بنسوع من الخيال والافتناع العقلي أن يكيف الأشياء كيف يشاء وأن يتحكم في القوي الطبيعية كما يتحكم في حركاته وسكناته ولكنه ما لبث أن اصطدم بمقاومة الظواهر الطبيعية له وعدم سيرها طوع بنانه . فعزى ذلك الي وجود قوى خفية خارجة عنه أطلق عليها اسم «الآلهة» ونسب اليها القوة والعظمة والمقدرة . ثم اضطرت هذه الصفات الى أن يتف منها موقف الخضوع والخشوع والي أن يتزلف اليها بالقرايين والصلوات والأدعية . ويدعم فريزر نظريته هذه بأسباب ثلاث :

(١) أن السحر بشعائره وطرقه واحد أبنا وجد . واحد من حيث مبدؤه ومن حيث تطبيقاته العملية علي حين اختلفت الديانات حسب المجتمعات التي نشأت فيها والعصور التي ظهرت فيها . فكلية السحر Universalité وخصوصية الدين particularisation سببها أن السحر هو الطبقة الأكثر عمقا أو الجذور الأصيلة التي تفرعت عنها الديانات .

(٢) تتميز الظواهر السحرية بأنها بسيطة أولية علي حين أن العقائد الدينية وما يتبعها من شعائر وطقوس تمتاز بطابع التعقيد الذي يركز في غالب الأمر علي تقدم التفكير . فقد اكتشف الانسان بعد ممارسة السحر أزمانا أن السحر قد يخفق في كثير من الأحيان وحينئذ بدأ يشعر بضعفه وجهله وقوته المحدودة . فهد هذا الشعور

ظهور الديانات التي ما لبثت أن تغلبت على السحر وظهرت عليه .
(٣) نلاحظ في بعض الديانات اختلاط شعائرها ببعض عناصر السحر كأن
تحتوى هذه الشعائر مثلاً على صيغة الرجاء والأمر معا . ولا بد أن يكون ذلك قد
حدث في عصر الانتقال من السحر الى الدين فتعلقت بعض عناصر السحر بالعقائد
الدينية وأصبحت جزءاً منها . وأعظم مظهر لذلك الامتزاج ظهور الرجال الآلهة
في كثير من المدينيات الغابرة Les hommes-Dieux حيث كان الحاكم يجمع
بين صفات الساحر والاله والملك (١).

أظهرت لنا الدراسات الحديثة وخصوصاً دراسات ليفي برون خطأ فريزر
الأساسي من حيث المنهج méthodologique . فقد بنى نظريته وما علق بها من
تفسيرات مختلفة على مبادئ عقلية أو مقولات Catégories تختص بها عقلية الشعوب
المتحضرة وأراد تطبيق هذه المبادئ على العقلية البدائية . فنراه يتحدث عن
التشابه Similitude والاتصال contiguïté ، التناسق Ordre ، العلية Causalité
دون أن يفرق بين ما قد يفهمه البدائي عن هذه المقولات وبين فكرة المتحضر عنها
في الوقت الحاضر . ولذلك فإنه قد نزع عن السحر كل عنصر عاطفي علي حين أن
أهم ما يميز العقلية البدائية خضوعها لنوع من القوة الخفية لا تخضع لسلطان العقل
وقد عبر ليفي برون عن ذلك بقوله ان العقلية البدائية تخضع لسلطان الروح
pensée mystique (٢) فالبدائي يعتقد أن هناك قوي خفية تؤثر في الأشياء
تأثيراً قد لا تدركه الحواس ولكنه مع ذلك حقيقي ويعتقد كذلك أن هناك صلة
خفية بين الأشياء وأن الشيء يمكن أن يكون هو شيئاً آخر في وقت واحد (٣)

Ibid. pp. 84-138.

(١)

(٢) راجع كتابه عن العقلية البدائية La Mentalité primitive

(٣) اطلق ليفي برون على هذا النوع الاخير من التفكير البدائي اسم «قانون المشاركة»
Loi de participation، وهو يناقض المبدأ المعروف في المنطق باسم «مبدأ الهوية»
Principe d'Identité.

كما أظهرت لنا دراسات مومس وهوبرت عن موقف الساحر ووصفها السهب للشعائر والأفعال السحرية (١) خطأ فريزر في اعتقاده أن الساحر شخص مأسر يستغل سداجة الأفراد أي أنه يعتمد أولا وقبل كل شيء على عقله في التأثير عليهم. فالحقيقة التي أثبتتها البحث وأثبتتها المشاهدة أن الساحر يكون أثناء تأدية عمله في حالة ذهول وغيوبة كالتي يقع فيها المتصوف حين تنابه نوبة الاشراف فيغيب عن وعيه ولا يشعر بالمؤثرات الخارجية ويأتي بحركات غير ارادية. وهذه الحالة التي تعتبره *Etat d'extase, de cataleptic* تنتقل عن طريق التأثير وبفعل البخور والطبول والرقصات التي تصاحب العمليات السحرية — الى من حوله من مريديه. فتنتابهم النوبة التي تنابه وهذا شرط أساسى لنجاح عملية السحر.

ثم ان العمليات السحرية ليست من البساطة كما يدعي فريزر بل هي على العكس شديدة التعقيد وتستلزم لأدائها شروطا كثيرة منها ما يتعلق بالمكان الذي يراعى فيه أن يكون نائبا عن المساكن كالمقابر والكهوف والمستنقعات والغابات حيث تتخذ الأرواح والشياطين مقامها المختار. ومنها ما يتعلق بالزمان الذي يجب أن يحدد بعناية فائقة من حيث الساعة واليوم والشهر وفصل السنة ويستدعي ذلك طبعا إلماما تاما بحالة الكواكب وأوضاعها حتى يقال إن بعض السحرة المهنود يعتقدون أن من الشعائر السحرية ما لا تواتى الظروف لأدائه الا مرة واحدة كل خمسة وأربعين سنة. ومنها أخيرا ما يتعلق باختيار أدوات السحر نفسها وكيفية تحضيرها. فالساحر الذى يريد أن يشفي مريضا يذهب لجمع أعشابه في ليلة قراء أو عند شروق الشمس ويجمعها بنظام خاص مستعملا في ذلك إبهامه وسبابه دون الأصابع الأخرى ويراعى ألا يمر ظله حين يسير على الأرض التي يختارها لجمع أعشابه إلى غير ذلك من الظروف والملابسات التي لا يتسع هذا المقال لسردها.

(١) انظر : L'Année Sociologique 1902-03, pp. 20-85.

علي أن مضمون السحر ذاته وما يحتويه من رموز واستدعاء قوى خفية كل ذلك يخرج به عن صفة البساطة . فهو ليس إذن كما يدعى فريزر عملية عقلية أو منطقية ولكنه صور رمزية واتصالات ونزوع إلى نوع من الاتصال الروحي، حالة من حالات الضمير الجمعي لا يمكن تفسيرها تفسيراً عقلياً وإنما يفسرها تحليل نفسية المجتمع ومعتقداته .

وقد وصل كودرنجتون Codrington من بحثه في هذه الناحية إلى اكتشاف فكرة الـ (مانا) Mana التي تخضع لها الظاهرة السحرية عند الشعوب الأولية :

عقيدة الـ (مانا) واتصالها بظاهرة السحر :

نظرية كودرنجتون:

عكف كودرنجتون على دراسة حضرة الشعوب الميلانيزية وحداه بحثه إلى اكتشاف عقيدة الـ (مانا) التي تسيطر على عقلية هذه الشعوب (١) وقد عرف هذه العقيدة بـ : يلي :

« يعتمد سكان ميلانيزيا في وجود قوة متميزة تماماً عن القوة الدنية . وهذه القوة تؤثر بطرق شتى إما جلب الخير أو جلب الشر . وهي تسهل كل شيء لمن يستطيع امتلاك زمامها ووضعها تحت سيطرته . هذه القوة هي الـ (مانا) : تأثيرها لا مادي ويمكن أن يقال إنه خارق للطبيعة surnaturel ولكن نتائجه تظهر على شكل مادي فتمنح القوة الجنسية أو الجهد أو السلطان . وهذه القوة لا تكمن في شيء بذاته بل يمكن لمن يعرف سرها أن يجعلها تسري في كل شيء . فهي العنصر الفعال الذي يمكن الفرد من السيطرة على قوة الطبيعة وتوجيهها كيف يشاء . إذا امتلكها الإنسان استطاع جلب المطر أو الصحو ، الهدوء أو العاصفة . كما أنه

(١) شرح كودرنجتون هذا الاكتشاف في كتابه The Melanesians 1899 الذي ظهر بعد كتب فريزر The Golden Bough بستوات قليلة.

يستطيع أن يشفى مريضا - أو يجلب المرض لسليم وأن يتنبأ بالمستقبل ويجلب السعادة لشخص أو يبعد عنه الشقاء . والاعتقاد في هذه القوة هو أساس السحر والشعوذة . فالسحرة والطبّيون والعرافة كل هؤلاء لا بد لهم من امتلاك هذه القوة».. (١)

يتضح لنا من هذا التعريف أن كودرنجتون يرى أن الـ (مانا) هي القوة السحرية، وهو يطلق عليها فعلا في كتابه هذا الاسم «Magical power» . وهذه القوة ولو أنها خارقة للطبيعة surnaturelle إلا أنها كامنة في الأشياء immanente أي أنها تتغلغل في كل شيء . وتتحد به (وفي هذا ما يميزها عن القوة العلوية الخارجة La force transcendante) وفي استطاعة الإنسان أو الجماعة أن يسيطروا عليها ويستغلوها لقضاء مصالحهم .

هذا التمييز هو الخطوة الكبرى في سبيل الاتجاه نحو التفرقة بين ظاهرة الدين وظاهرة السحر . وقد سار ليمان Lehmann، مالينوفسكي Malinowski في هذا الاتجاه حتى وصلا بعد تحليل عقيدة الـ (مانا) إلى إثبات هذه الحقيقة : وهي أن السحر والدين ظاهرتان متباينتان لا صلة بينهما من حيث الأصل ، بل إن كلاهما تقوم على أسس نفسية مختلفة .

ليمان يواصل البحث في عقيدة الـ (مانا) :

بعد أن وضع كودرنجتون أساس التفكير في عقيدة الـ (مانا) عند سكان ميلانيزيا جاء بعده ليمان Lehmann أحد تلاميذ العلامة الألماني فوننت Wundt فواصل البحث في هذه الناحية وأخرج لنا وصفا دقيقا شاملا لجميع مظاهر تلك العقيدة (٢). لاحظ ليمان عندما تعرض للبحث في النواحي التطبيقية لهذه العقيدة أن

The Melanesians, pp. 191 et suiv.

(١)

Lehmann : *Le Mana* 2ème édit. 1922.

(٢)

هذا اللفظ (مانا) له معان كثيرة من الناحية اللغوية الصرفة (١).

فمعناه (أولاً) في اللغة الميلاينية يفكر ، يحب ، يرغب كما أنه يعنى موضوع الشيء الذى تفكر فيه أو نخبه أو نرغبه — ثم هو يعنى (ثانياً) النجاح والسعادة — (ثالثاً) القوة الخارقة للطبيعة التي تقود الى النجاح والسعادة والتي نبحت عنها ونرغبها — (رابعاً) المكانة الاجتماعية التي يتمتع بها شخص ما ومبلغ نفوذه في المجتمع — (وأخيراً) التأثير الخفى الذى ينتج عن ممارسة قوى غير طبيعية .

ويعتقد ليمان أن هذا المعنى الأخير هو المعنى الأصيل لكلمة (مانا) وعنه تفرعت المعاني الأخرى لأن استعمال كلمة (مانا) كصفة أو اسم ناتج عن المصدر «التأثير الخارق للعادة الذى يؤدى الى نجاح مبشر *Das potenzierte ubernaturliche* Konnen» . وبمعنا ان نسجل هنا أن الـ (مانا) كقوة سحرية تستدعى بذل أقصى قدر من الجهد في سبيل النجاح ، أى ان العنصر الأساسي فيها هو النشاط الانسانى (وفى ذلك تميز آخر لها عن أساس العقيدة الدينية) .

وقد توصل ليمان بعد ذلك الى التمييز بين ثلاثة أنواع من الـ (مانا) :

(١) نوع يعمل في محيط الانسان كقوة تؤثر في العلاقات بين الأفراد والجماعات ، ويطلق عليها السكان الأصليون اسم «مانا تنجاتا *Mana Tangata*» . وهذه القوة قد تصيب الفرد أو الجماعة على السواء . فالمحاربون الذين يصيبون النجاح والفوز في القتال يتمتعون بنصيب من قوة الـ (مانا) الفردية . وقد وصف تي كاونى أحد الأبطال الذين قادوا الثورة ضد الانجليز بين قبائل الماهورى *Les Maoris* بأنه (مانا تنجاتا) أى الرجل الذي يتمتع بقوة لا مثيل لها . وقد تصيب هذه القوة أفراداً من أحتل الطبقات فلا يلبث أن يتحقق سرياتها اليهم بالنجاح الباهر الذى

(١) أشار هوبرت وموس الى بعض هذه المعاني في بحثهما المشهور اليه آتياً . انظر *L'Année Sociologique* 1902.

يكلل أعمالهم وبارتفاعهم الى أسمى مكانة في المجتمع . ويحدث الانتقال من الفكرة الفردية الى الفكرة الجمعية لهذه الكلمة حين يُقصد بها السلطان والمكانة الاجتماعية اللتان تضيفان على الفرد قوة يستطيع بها التأثير على سائر أفراد المجتمع . فيقال مثلا إن هذا الرئيس أو ذاك القائد الحربي يؤثر بما وهب من (مانا) على عدد من العشار في نطاق معين من الأرض ، وهذا يعني أن مجموعة الرجال الذين يعيشون داخل هذا النطاق يخضعون لسلطته ويتقنون أوامره . ويقتد القائد طبعاً هذه القوة وما يترتب عليها من سلطة وتقوى حين يُمنى بالهزيمة في الحرب أو يفشل في أداء مهمة يتعين عليه أداؤها . وقد يفقد الرئيس أيضاً صفته كممثل لهذه الـ (مانا) الجمعية بتأثير عمل سحري يقوم به شخص آخر لا تتزعزع هذه الصفة منه . وقد ينشب الكفاح بين ساحرين أو مجموعة من السحرة حتى يستطيع أحدهم أن يثبت هزمته للآخرين أنه يتمتع بأعظم درجة من قوة الـ (مانا) وينتفى بذلك على ما كان أُنذاده يتمتعون به منها (PP. 33 et Suiv.) .

كل هذه الأمثلة تظهر لنا بوضوح أن الـ (مانا نتجتاً) قوة تتصل اتصالاً وثيقاً بالإنسان وأنها مألوفة لديه يستطيع أن يحصل عليها ويضاعفها بمجهوده الخاص كما أنه قد يضعفها أو يفقدها إذا تراخى ذلك المجهود . وهي لذلك قوة أرضية لا صلة لها بحرمة الدين وقداسته . ويدخل تأثيرها في كل ما يقوم به الفرد أو الجماعة من عمل . وقد لاحظ ليمان — كما لاحظ من قبله كودرنبجوتون — الدور الذي تلعبه عقيدة الـ (مانا) في المجهود الصناعي والحرفي لسكان ميلانيزيا وخصوصاً في صيد الآلى . فالصياد الذي يفوص بمهارة إلى قاع البحر ويعود سريعاً محملاً بصيده يتمتع بحظ وافر من قوة الـ (مانا) ويكون ذلك خير عون له في عمله يقيه شر المخاطر .

وقد جاءت بعد ذلك دراسات مالىنوفسكي عن العلاقة بين العمل والسحر مؤيدة

لتلك للملاحظة . إذ يقول^(١) «إن السحر والعمل عند القبائل البدائية يسيران جنباً إلى جنب ولا يستغنى أحدهما عن الآخر . فالبدائيون يعتقدون أن ما يقومون به من عمل لا ينجح إلا بفضل السحر : كما أن السحر لا معنى له في نظرهم إلا إذا كان عوناً على العمل»^(٢) . ويقول في موضع آخر «ولا يمكن أبداً أن نشبه الساحر بكاهن يزعم حفلة دينية ، ولكن الوصف الذي ينطبق عليه هو أنه صانع مخصوص في حرفة ما تعين على أداء الحرف الأخرى»^(٣) . فالسحر إذن لازم لأداء أي عمل وينتظر البدائي منه ما ينتظر المتحضر اليوم من الحظ السعيد أو المصادفة الحسنة . والقيام بعملية سحرية معناه — إذا ترجمنا ذلك بلغة المتحضر — وضع الحظ في جانبه ولذلك يستعان بالسحر خاصة عند الاقدام على عمل يستدعي المخاطرة ويلوح فيه جانب الخطر^(٤) .

(ب) أما النوع الثاني من الأشياء فإنه خاص بالحيوان والطير والأشياء الجامدة . ويتصل هذا النوع بما يعتقد البدائيون من وجود قوة خفية منتشرة في الطبيعة مستقلة عن إرادة الانسان وتؤثر في الأشياء دون تدخله . وقد استنتج ليان من هذا الاعتقاد أن الـ (مادة) ليست صفة عارضة تكسبها الساحر لما يزاوله من الأعمال بل إنها في الواقع قوة حقيقية منتشرة في كل شيء ، وإن كان الانسان لا يدري كنهها ولا يستطيع تعليلها . وتعمل هذه القوة في محيط الحيوان والنبات والجماد دون أن يكون للانسان دخل في ذلك . ويعتقد سكان ميلانيزيا أن بعض

(١) انظر كتاب مالينوفسكي Malinowski: Argonauts of the Western Pacific.

(٢) Ibid. p. 414.

(٣) Ibid. p. 142.

(٤) انظر أيضاً كتاب مالينوفسكي

Myths in Primitive Psychology 1926 (p. 107-117).

صحح ليفي برول نتائج هذا البحث فيما يختص باقتصار السحر على العمل الخطر في كتابه :
Expérience mystique et les Symboles chez les primitifs 1938.

الطيور يختص بقوة عظيمة من ال (مانا) وأن الانسان قد يستطيع في بعض الأحيان وبعد بذل مجهود شاق أن يتحكم في هذه ال (مانا) ويستخدمها في أغراضه ومصالحه (وفي هذا ما يفسر استخدام بعض الحيوانات أو بعض أنواع الأحجار في الشعائر السحرية) .

(ج) وهناك نوع ثالث من ال (مانا) تختص به الأرواح والآلهة ويسمى «مانا أتوا» Mana atua . ويجب أن نلاحظ جيدا أن هذه القوة تعمل فقط في محيط الآلهة ، أي في كنفها بين بعضها البعض ، ولكن لا شأن لها بالعلاقات بين الآلهة والانسان ، لأن الآلهة في علاقاتها مع الانسان لا تحتاج لمزيد من القوة وصفها الذاتية تكفي لاختصاصه والتحكم فيه .

* * *

خلاصة البحث :

يتضح مما قدمنا من وصف عقيدة ال (مانا) واتصالها بالظاهرة السحرية أن هذه الظاهرة لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالعقيدة الدينية . فالسحر يقوم على القوة الخفية التي يُعتقد أنها تسري في المحيط الأرضي ، أما الدين فإنه يقوم على فكرة التقديس . La notion du sacré

ونحن إذا أنعمنا النظر فيما كتب موسى وهويرت عن السحر وعلاقته بالدين ، وجدنا أنها يميلان لفصل بين هاتين الظاهرتين ، وإن تكن هناك اعتبارات أخرى تتعلق بمبدئيها الفلسفي جعلتهما يلتصقان طريقا آخر لايجاد صلة بين الظاهرتين من حيث الأصل . إذ تجدهما يقولان في معرض المقارنة بين السحر والدين «إن الشعائر الدينية تتصف بطابع القدسية والالزام ، وإنها عامة يشترك فيها الجميع وتقام في أوقات ومناسبات منتظمة . . وعلى النقيض من هذه الشعائر توجد شعائر أخرى

لا تُؤدى إلا فى الحفاء ، وذلك لأن المجتمع حرّمها وفرض العقوبة على من يمارسها وهى شعائر السحر الأسود Les maléfices التى يُقصد من ورائها الهدم وجلب الشر . ولكن هذين القطبين المتناقضين ، قطب التضحية وقطب الشر ، يفسحان المجال بينهما لطائفة من الظواهر التى قد يصعب تحديد طابعها الخاص لأول وهلة . وهذه هى الظواهر السحرية المباحة التى تقصد فى مجموعها إلى الناحية العملية أو الفنية كالتلطيب أو جلب المطر أو زيادة خصوبة الأرض الخ...» (١)

نرىنا هذه الفقرة بوضوح تردد العالمين موسى وهوبرت فى وصل السحر بالدين أو فصله عنه . وقد اتجهنا آخر الأمر إلى البحث عن أصل واحد للعقيدتين ووجدنا أن فكرة الـ (مانا) هى ذلك الأصل ، ولكنهم قسموها إلى قسمين : نوع مقدس mana sacré هو أصل الدين ، ونوع غير مقدس هو أصل السحر . فكل ما هو مقدس أو ديني يرجع فى نظرم إلى فكرة الـ (مانا) ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل (مانا) ترتفع إلى مرتبة التقديس . وقد اتجه موسى وهوبرت هذا الاتجاه لأسباب تتعلق بمنهج المدرسة السبولوجية الفرنسية ، هذا المنهج الذى يقوم على اعتبار كل ظاهرة اجتماعية سواء أكانت دينية أو سحرية ناتجة عن الضمير الجمعي أو عن القوة الجمعية .

ويميل الفيلسوف برجسن أيضا لفصل السحر عن الدين ، ويظهر ذلك جلياً فى بعض فقرات من كتابه «مصدري الدين والأخلاق» (٢) ، فقد قسم فى هذا الكتاب ظاهرة الدين إلى نوعين : الديانة الاستاتيكية التى تقوم على غريزة حب البقاء والكفاح فى الحياة ، والديانة الديناميكية التى تقوم على الحدس والفناء فى عالم الروح L'intuition mystique . وربط السحر بالنوع الأول أى بالديانة

(١) راجع المقال المشار إليه آنفاً L'Année Sociologique 1902, p. 19.

(٢) Bergson: Les deux sources de la morale et de la religion. (٢)

الاستاتيكية لاتحادهما في الهدف وهو « دفاع الغريزة الطبيعي ضد ما قد يحدّثه عمل العقل من خيبة أمل في نفس الانسان » (ص ١٢٧). ولكن العلاقة بين السحر والدين تقتصر في نظره على الأساس النفسى الذي أوجد كليهما وفيما عدا ذلك لا يجد مجالاً للتساؤل « فيما إذا كان السحر قد تفرع عن الدين أو إذا كانت الدين قد تفرع عن السحر . فكلتا الظاهرتين معاصرة للأخرى » (ص ١٨٥) . وهو يرى أن السحر متأصل في الانسان inné وأنه المظهر الخارجى لل رغبات التي يحتاج بها صدره (ص ١٧٧) ، ويمكن إرجاعه في النهاية الى عنصرين أساسيين :

- (١) الرغبة في التأثير على الأشياء المحيطة حتى ما لا يمكن أن تصل اليه يد الانسان.
- (٢) الاعتقاد بأن الأشياء يسري فيها ما نستطيع أن نطلق عليه اسم « العصاراة الانسانية Le fluide humain ».

« وفكرة العصاراة الانسانية هذه أو بمعنى آخر فكرة الـ (مانا) ، انما هي فكرة سحرية صرفة لا علاقة للدين بها » (ص ١٨٣) وذلك لان « الدين قوامه معبودات مقدسة تسمو على قوة الانسان ، على حين أن السحر يرتكز على قوة خفية منبئة في العالم المادى ويستطيع الانسان ان يتحكم فيها ويسيرها لأغراضه الشخصية » (ص ١٧٤ ، ١٨٣) . والسحر يدعى انفسه الغلبة على قوة الطبيعة ، على حين أن الدين يطلب رضا الآلهة . كما أن السحر يتميز بصفة الأنانية على حين أن الدين يقوم على إنكار الذات .



والنتيجة التي نصل اليها من هذا البحث ، أن السحر يقوم على فكرة الـ (مانا) أي اعتقاد الانسان بوجود قوة خفية كامنة في الاشياء force immanente وهذه القوة تتصل بجميع أعمال الانسان وتألف معه لتعاونه في حياته وخصوصا في

الناحية العملية منها . وفي هذا ما يميزها عن العقيدة الدينية التي تقوم على أساس
التقديس أو العبادة ، والتقديس لا يكون إلا لقوة عليا *force transcendante*
خارجة عن محيط الانسان .

وتعمل قوة ال (مانا) على الأخص في نطاق كائنات من مستوى وجودي
واحد *du même rang ontologique* على حين أن أهم مظاهر العقيدة الدينية
وجود كائن أعلى يختص بالنفوذ العلوى وكائن أسفل يتصف بالخضوع وطلب
الرضا والعفو والغفران .

وانتفاء صفة العلوية عن ال (مانا) يجعل من الممكن الاستحواذ عليها وتسخيرها
بواسطة الانسان ، وليست العمليات السحرية إلا وسيلة للاتصال بهذه القوة
وتسخيرها . ويمكن تشبيه الساحر في اتصاله بهذه القوة الخفية بما ورد في فلسفة
أفلاطون عن الكائنات المؤلفة *Les démiurges* التي تشترك في تنظيم العالم . ولكن
ليس معنى ذلك أن الساحر يخلق هذه القوة خلقا ، فانها موجودة في الاشياء في حالة
سبات *d'une façon latente* ويقتصر عمل الساحر على تحريكها وإيقاظها
من مكنها .

وقد نتج عن فكرة ال (مانا) وما يتعلق بها من ممارسة العمليات السحرية
تقوية الروح المعنوية في الانسان او الجماعة وشعورهم بقوتهم وبنتيجة مجهودهم الذاتي .
فتولد عن ذلك نوع من الاعتداد بالنفس مما ساعد كثيرا على تقدم النشاط الانساني
واتجاهه نحو الاستنباط والابتداع ، ومن السهل أن نتبين أن هذا الاتجاه لا تساعد
عليه نزعة التقديس ، لان الدين فوق ما يستلزم من خضوع وخشوع أمام قوة عليا
من شأنه أن يشعر الانسان بضعفه وقصوره واحتياجه دائما الى عون يأتيه من فوق
عن طريق الآلهة .

•*

السحر والدين إذن ظاهران لا تتصل احدهما بالآخرى لا من حيث النشأة ولا من حيث الاسس النفسية التي تفسر كلا منهما . فأساس السحر هو تلك الرغبة الملحة عند الانسان التي تدفعه للعمل وبذل الجهد حتى يستطيع أن يتحكم في ظواهر الطبيعة ، وهذه الرغبة قد تكون مصحوبة بشيء من الوجل أو التهيّب la crainte حين يقدم الانسان على مجابهة قوى لا يزال سرها مغلقاً عليه . أما أساس الدين فهو ذلك الشعور بالضعف وبقلة الانسان وب حاجته للمعونة وما يترتب على ذلك من .وقف الانتظار وطلب الرحمة ، ويصحب ذلك الشعور نوع من الفزع angoisie حينما يجد الانسان نفسه وحيداً لا حول له ولا قوة ، ولا يخرج من ذلك الفزع إلا أن يتהל إلى قوة عليا ترسل اليه السلام والطمأنينة .